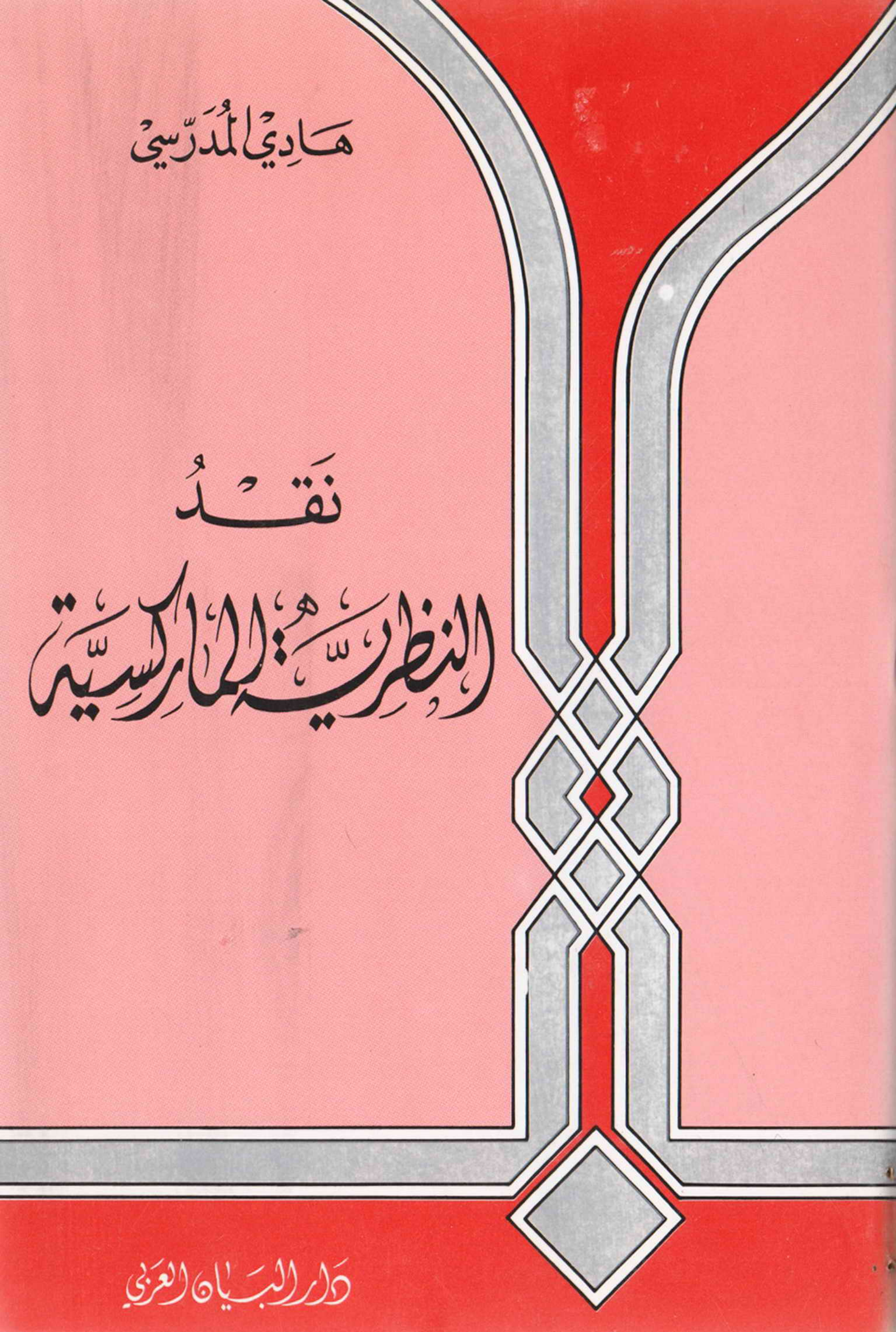


هادي المدرّسي
نقد
النظرية الماركسية
دار البيان العربي

نقد

النظرية الماركسية

هادي المدرّسي

نقد النظرية الماركسية

دار البيان العربي
ص. ب : ١٥٥٢٣٩
بيروت - لبنان

الطبعة الثّانية
منقحة ومزيدة
١٤٠٩هـ-١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ❀ الرحمن الرحيم ❀

مالك يوم الدين ❀ اياك نعبد واياك

نستعين ❀ اهدنا الصراط المستقيم ❀

صراط الذين انعمت عليهم غير

المغضوب عليهم ولا الضالين ❀

أيّها الرّفاق : تواضعوا قليلاً !

الماركسيّة ليست شيئاً واحداً :

فهناك « النظرية الماركسيّة » .

وهناك « الأنظمة الماركسية » .

وهناك « الثورة الماركسية » .

والذي يهمّنا هنا ، ليست الأنظمة الماركسية ولا الثورات الماركسية ، وإنّما الفكر الماركسي ، أي ، الأُسس الفلسفية التي تقوم عليها النظرية الماركسيّة .

ونحن إذ نناقش هذه الأُسس لنصل إلى نتيجة واضحة هي أنّ نصيبها من الصحّة قليل ، فلا يعني ذلك أنّنا ضدّ مواقف الأنظمة الماركسية ، في السياسة الخارجية ، أو إنّنا ضدّ الثورات الماركسية ، التي اندلعت ضدّ الفاشية ، أو الامبريالية .

فلسنا مثلاً ضدّ موقف الفيتناميين في ثورتهم على التدخل الأجنبي في بلادهم ، ولا ضدّ الحصول على الأسلحة السوفياتية لمحاربة إسرائيل .

تماماً كما أنّنا عندما نفنّد النظرية الرأسمالية في الاقتصاد وندين موقف الغرب في استعمار الشعوب ، فلا يعني ذلك أنّنا أيضاً ضدّ التكنولوجيا الامريكية ، والتقدّم العلمي في أوروبا .

إنّ الإتحاد السوفياتي يحارب الرأسمالية الامريكية ، ويعمل ليل نهار ضدّها ، ومع ذلك فانّه يمدُّ يديه إلى أمريكا ليحصل منها على القمح ، وليتعاون معها في مجال غزو الفضاء وليشترك معها في مجال الدراسات الطبية .

فالموقف شيء .

والنظرية شيء آخر .

ونحن نناقش النظرية الماركسية ، إيماناً منّا بضرورة البحث عن الحق ، والمناقشة البنّاءة للوصول إليه ـ تماماً كما فعل النبيّ إبراهيم يوم قال لله تعالى : ﴿ربِّ اَرِني كَيْفَ تُحْيِي المَوْتىٰ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

﴿قـال ـ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قـالَ ـ: بَـلىٰ . وَلكِنْ لِيَـطْمئِنَّ قَلْبِي ـ﴾[1] .

إنّنا نرفض منـطق « الصنمية العقـائديـة » التي تطلب منك الإيمان بالنظرية ، واعتبارها معصومة من الخطأ .

ونرفض منطق « النرجسية الفكرية » التي تجعلك تنظر إلى نفسـك عبر مـرآة الزهـو والغرور لتعتقـد انّك دائـماً على حقّ ، وان غيرك دائماً على باطل .

انّ المـاركسيـة ـ كـما سنـرى ـ تعتمـد عـلى المنــطق الديالكتيكي ومعطيات النـظرية الـداروينية ، و« منتجـات » أفكار فرويد .

وقـد رفض العلم النـظريــة الـداروينيــة ـ رغم كـلّ التعديلات التي أجراها عشّـاقُها عليهـا ، كما رفـض أفكار فرويد ، وأثبتت التجارب أن المنطق الديالكتيكي يعتمد على أُسس واهية ـ أفلا يعني ذلـك أنّ علينا أن نفكّـر مرّتـين قبل أن نعتنق الماركسية اليوم ؟ .

وللحقيقة : فانّ الرفاق لـو ناقشـوا الجدليـة التاريخيـة المادية على ضوء معطيات القرن العشرين ، وليس على ضوء

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

معطيات القرن التاسع عشر ، لتحقّقوا مما توصّلنا إليه .

ولكنّهم مع الأسف لا يناقشونك في « النظرية الفلسفية » إلا عبر المواقف السياسية ! .

فعندما يحاولون إقناعك بالماركسية ، يستعرضون لك المواقف السياسية للحكومات التي تعتمد على الماركسية . ويقولون لك : ألا ترى الإتحاد السوفياتي كيف يساعد العرب ضدّ إسرائيل ؟ ألا ترى الصين كيف تقف معنا في المحافل الدولية ؟ ألا ترى إلى الكتلة الاشتراكية كيف قطعت علاقاتها بإسرائيل ؟ .

إذن : فالماركسية على حقّ ، ونظريتها في علم الاجتماع ، والاقتصاد ، والأحياء ، والعلوم ، وحتى في تفسير وجود « الأميبا » صحيحة .

ومنطق هؤلاء يشبه إلى حدّ بعيد منطق ذلك الخبيث الذي يريد إقناعك بالرأسمالية الاقتصادية ، باستعراض المكتشفات والمخترعات في أوروبا وأمريكا . فيقول لك : ألا ترى التقدم الذي أحرزته الولايات المتحدة في مجال التكنولوجيا ؟ ألا ترى كيف أن مركبة أبّولو الأميركية قد وصلت الى القمر ؟ ألا ترى كيف ان كل شركات الطيران تشتري طائرات بوينغ وجامبو الأمريكية ، وان سيارات بونتياك ،

وشفر الأمريكية هي من أجمل ، وأقوى السيارات ؟

إذن فالرأسمالية الاقتصادية على حقّ . وكل ما يعتقده الأمريكيون في الكون والحياة صحيح !

وينسى هؤلاء : ان المواقف السياسية ، إنّما تأتي ضمن الاتفاقات الخاصة ، أو حسب المصالح ، وليس لها ارتباط بالخلفيات التي يؤمن بها الطرفان . والّا لكان لنا أن نطالب الاتحاد السوفياتي ، والصين بأن تعتنقا الإسلام ، لأنّنا ـ الطرف الآخر في الاتفاقيات هذه ـ نعتنقه ونؤمن به . ولماذا العكس ؟.

وأيضاً : لصحَّ للدول الافريقية أن تطالبنا بأن نعتنق خرافاتها ، وأديانها الكثيرة المختلفة ، لأنّها قطعت مثلاً علاقاتها بإسرائيل ، وأنّها تمدّنا ببعض المواد الأولية : كالفحم ، والحديد ، والفواكه !

لا . .

أيّها الرفاق تواضعوا قليلاً ، وتفضّلوا معنا نناقش . فطاولة البحث والتنقيب بانتظاركم . والدعوة مفتوحة بلا ميعاد !



إفتحوا نوافذ قلوبكم

« قـال القاضي للرجـل ، بعد أن استمـع إلى كلامـه بإمعان :

ـ أنت على حقّ مائة بالمائة ، لـولا شيء واحد ، وهـو أنّـك قد جئت إليّ وحيـداً . وسوف لن أصـدر أيّ حكم في هـذا الأمر إلا بعـد أن أستمع إلى غـريمك ـ المـدّعى عليـه ـ أيضاً .

أمّا قبل ذلك ، فان إصدار أي قرار بهذا الشأن يعتبـر انحيازاً من غير مبرّر ! » .

كم منّا لا يوافق هذا القاضي في موقفه ؟

كـلامياً ، ليس هنـاك من لا يوافقـه ، أما عمليـاً فان ٨٠٪ منّا يخالفونه مخالفة جـذرية ؛ فجميعنـا ـ مثلاً ـ مـرتاح من المبـدأ الذي يعتنقـه ، ونظنّ أنّنـا فعلاً عـلى « حقّ » وأن

غيرنا على « باطل » . تماماً كما كـان المدّعي يعتقـد أنّه عـلى « حقّ » وأن على « القاضي » إقراره في ذلك .

وكما قال المفكّر الفرنسي المستر « آرثر » :

« كلّ منّا يـريد أن يختـار لنفسه ألـذَّ الأطعمة وأوسـع المساكن ، وأحسن المراكز ، وأصدق الاخوان .

ولكن : كم منّـا فكّـر في أن يختـار لنفسـه أحسن الديانات ؟ . »

« انّ معظمنا راضٍ بـالدين (أو المبـدأ) الذي وجـد عليه آباءه، وفراراً من التعب نترك البحث والتنقيب »[1] .

مثلاً لو نفـرض أن نسبة أن يكـون الماركسي عـلى حق دون غيره هو ـ أكثر التقادير ـ ٥٠٪ ، وهذا يعني أن نسبة أن يكون على باطل هو أيضاً ٥٠٪ ، وهذا يدعوه إلى أن يبحث مجدّداً عن « الحقّ » .

ولكن هل يفعل ذلك ؟ . .

التقيت قبل مدّة برجل كـان يدّعي أن الحـلّ الوحيـد للمشاكل الاجتماعية ، والفردية هو تبنّي « الماركسية » ، وأن

---

(١) التكامل في الإسلام ج٥ ص١٧١ .

اعتناق أي مبدأ آخر من شأنه أن يعمّق هذه المشاكل ، ويُكثرها .

وعندما سألته : وهل تقول ذلك بعد مطالعة ـ مماثلة ـ لبقيّة المبادىء والمذاهب الموجودة ؟ . أجاب : ان ماركس قد طالعها بعمق ، وهو يخبرنا أن كلها فاشلة ، ما عدا المذهب الديالكتيكي الذي آمن به ، وطوره بنفسه .

قلت : لو فرضنا صدق ما تقول ، ألا تعتقد بأن الفكر الإنساني قد تطوّر كثيراً عمّا كان عليه في عصر ماركس ؟ إن عصر ماركس كان لا يزال عصر البغال والجمال ، أما هذا العصر عصر الذرَّة ، والصاروخ ، وأبولو ، وهذا دليل واضح على تقدّم الفكر والعقل الانسانيين ، وأنتم ـ بحكم إيمانكم بالتطور كأصل ثابت من أصول الديالكتيك ـ مدعوّون إلى إعادة النظر في كل الأفكار والايديولوجيات التي كانت سائدة في عصر ماركس بما فيها الايديولوجية الماركسية .

لأن « الفكر » ـ كما تقول الماركسية ـ وليد المخّ ، وبما أن المخّ كائن مادي ، فإن الفكر ـ المتولد منه ـ يكون مادياً أيضاً ، وإذا كانت الماديات في تطوّر مستمر ، فان الفكر يكون ـ لا محالة ـ في تطوّر مماثل .

وهذا يقضي بلزوم نسف الايديولوجية الماركسية كلّما تطور الفكر الانساني ليتاح له فرصة إنتاج ايديولوجيات أكثر تطوّراً وحداثة .

قال : الواقع انّني قرأت الماركسية ، فآمنت بها ، ولا أرى أية حاجة الى قراءة المبادىء الأُخرى .

قلت : أظنّ أنّنا نتّفق ـ مهما اختلفنا ـ على شيء واحد هو : أنّ الحق لا يتجزّأ ، أعني أنّه لا يمكن أن تكون الايديولوجيات المتناقضة كلها على « حقّ » ـ مثلاً ـ أن يصل الذي يسير باتجاه الشرق قاصداً بيروت ، والذي يسير باتجاه الغرب قاصداً بيروت أيضاً ، لا يمكن أن يصل الى بيروت إلا واحد منهما فقط .

فإذا اتّفقنا على الهدف وهو الحق ، وكان كلّ منّا يسير باتجاه معاكس للطريق الذي يسير فيه الآخر : أليس من الأفضل أن نبحث ـ بموضوعية ـ عمّا إذا كان الطريق الذي نسلكه سيوصلنا الى الهدف ، أم لا ؟ .

أنت لا تدّعي أنّك عبقري من العباقرة وأن لك حاسة سادسة تكشّف لك الأُمور بلا حاجة إلى البحث عن أيّ برهان . وحتى لو ادّعيت ذلك فلا يمكن أن تدّعي أنّك في غنىً حتّى عن مجرّد التفكير .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا نجلس على مائدة واحدة لنبحث عن الايديولوجية الصحيحة ، والمفروض أن لايديولوجية الصحيحة هي واحدة لا أكثر ؟؟

وأضفت :

« إنّ أولى المآخذ على الماركسيين أنّهم لا يطالعون ـ أو لا يريدونهم أن يطالعوا ـ أيّة ايديولوجية أُخرى تتناول الحياة ، والتاريخ ، والانسان سوى الايديولوجية الماركسية » .

وهذا يعني أنّهم يحاولون اعتناق مذهب معيّن عن طريق جهل المذاهب الاخرى .

والذي ندعو إليه ـ نحن المؤمنين بالله ـ هو أن يفتح كل إنسان نوافذ قلبه وجوارحه على « الحقّ » للتمسّك به أينما وُجد . ندعو إلى التفتح على الواقع ، لا الانغلاق على النفس ، وهذا ما أُريده منك .

قال : سأبحث في الأمر .

وتخلّص منّي بسرعة !!

إنّ السؤال المطروح أمامنا اليوم ـ أكثر من أي يوم آخر ـ هو : هل باستطاعة الماركسية أن تحلّ مشاكلنا الفردية ، والاجتماعية ، والفكرية ـ كما يزعم

الماركسيون ـ؟!

الحقيقـة : أنّه لا يمكننـا الإجابـة على ذلـك نفياً ، أو إثبـاتاً ، إلا بعـد أن نستعرض أصـول الماركسيـة استعراضـاً عـاجـلاً لنـرى مـدى صحّتهـا ، ومـدى مـلاءمتهـا لـذات الانسان ، وفطرته ، ومدى تطابقها مع الواقع .

انّ الماركسية ـ كما نعرف ـ تعتمد أكثر ما تعتمد ـ عـلى « المنطق الديالكتيكي » ، ويعتبر هذا المنطق بمثابة « نـظّارة » للماركسية تستعملها كلّما أرادت تفسير ظاهرة اجتماعية ، أو طبيعية ، أو وجودية !

ويتشكّل هذا المنطق من أُصول أربعة :

أولاً ـ أصل التطوّر .

ثانياً ـ تناقضات التطوّر .

ثالثاً ـ قفزات التطوّر .

رابعاً ـ الارتباط العام .

وفي الصفحـات القليلة القادمـة ، سوف نـنـاقش هذه الأربعة بكثير من الإيجاز .

أُصول الديالكتيك



أوّلاً ـ حركة التطوّر

وتشرح لنا الماركسية هذا الأصل بقولها :

ـ « إنّ الطبيعة ، بما فيها من الحوادث والأفكار ، ليست في حالة سكون وجمود ، بل في حالة تجدّد وتطوّر لا ينقطعان ، وان فيها دائماً شيئاً يولد ويتطوّر ، وشيئاً ينحل ويضمحلّ .

ولذلك فانّ الماركسية لا تكتفي بالنظر الى الحوادث من حيث علاقات بعضها ببعض بل من حيث حركتها أيضاً »(١) .

ومن حقّنا أن نناقش هذا الأصل من النواحي التالية :

---

(١) ننقل هذه النصوص من كتاب : « المادية الديالكتيكية» و« المادية التاريخية » و« البيان الشيوعي » و« أُسس اللينينية » .

واحـد : انّ هذا الأصـل ليس شيئاً جـديـداً تضيفـه الماركسية إلى الفكر الانساني ، فقد كان « هـرقليط » (٥٠٠ سنة قبل الميلاد) يشبّه العالم بنهر جار لا يستقرّ منه جزء على حالة واحدة .

كما أن « طالس » (٤٠٠ سنة قبل الميلاد) كان يعتقد أنّ العالم ليس جامداً ، وان أصل التطوّر فيه أصل ثابت .

وكـان « ديمقراطيس » (٣٤١ قبـل الميـلاد) يـرى أن أصل التطوّر حقيقة لا يمكن إنكارها[١] .

إثنين : انّ قانون التطوّر لا ينكره المنطق الإلهي ، بل يؤكّده ، وهو ينسجم مع العقل والتجـربة ، ولكن بشـرطين أساسيين :

الأول ـ أن يربط التطوّر بـالإرادة البشريـة . فالأمـور سواء منها الاجتماعية ، أو السياسية ، أو العلميـة تتطوّر إذا أراد الإنسان ذلك .

فإرادة الإنسان شرط ، للتطوّر . أمّـا إذا أراد الانسان التـراجع ، أو لم يعمـل من أجل التـطوّر شيئاً ، فـلا يتطوّر شيء .

---

(١) حوار في الفكر الماركسي .

وهنا محلّ اختلاف بيننا وبين الماركسيين : إنهم يلغون إرادة الانسـان ، ويعتبرون التغيـير وفق مـا يقـولـون تغييـراً جبرياً ، حتمياً ، لا إرادياً .

وقـد رأينـا في كثـير من المنـاطق أن منـطقهم تعـرّض لنكسة بسبب إرادة الانسان .

إنّ ماركس تنبّأ ، بـالاعتماد عـلى الحتمية التـاريخية ، بأن الثورة الشيوعية لن تندلع من مجتمع متخلّف ، وإنّما من مجتمـع صناعي رأسمـالي ، في انجلتـرا وألمـانيـا . فكـذبت نبوءته ، وخرجت الشيوعيـة من مجتمع زراعي متخلّف مثـل الصين .

وتنبّـأ أيضاً بـاتساع شقّـة الخـلاف بـين البـرجـوازيـة والبـروليتاريـا في الدول الـرأسماليـة بشكل مضـطرد الى أن يتفاقم الوضع الى ثورة تقلب النظام الرأسمـالي كله ، ولكن الذي حدث في المجتمعات الرأسمـالية كـان العكس ، وهو مزيد من التقارب بين الطبقات .

وتنبّأ بأشياء كثيرة ولكنها لم تحدث ، لسبب بسيط هـو أنّه نسي العامل الارادي ، وان الإنسان لا تجوز فيه الحتمية لأنّ النـاس ليسـوا كـرات بليـاردو تتحـرّك بحتميـة قـوانـين فيزيائية ولكنها مجموعة إرادات حرّة تدخل في علاقات معقّدة يستحيل فيها التنبؤ بناءاًعلى قوانين مـادية وأصـدق مثل عـلى

كذب دعوى الحتمية ، هو ثورة الإنسان على واقعه ، بدل الخضوع له .

إنّ الإسلام يؤمن بالتطوّر المسبّب عن الإرادة البشرية بل أنّه يقول عن الله ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾[1] . ولذلك فهو لا يلغي إرادة الإنسان ، بل يشحذها ، قائلاً له : « من استوى يوماهُ فهو مغبونٌ ، ومن كان آخِر يوميه شَرَّهما فهو ملْعونٌ » . ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى نقصان ومن كان إلى نقصان فالموت أولى به[2] .

الثاني - إنّ التطوّر ليس في كل شيء ، فالأفكار والمعرفة البشرية والحقائق العلمية ثابتة .

إنّ التطوّر محصور بالمادة ، في حدود إرادة الله ، وإرادة الإنسان ، ولكن الماركسية تعمّمه على كل شيء حتى على الأفكار . وتقول في ذلك :

- والفكر لم يخلق المادة ، وإنّما المادة هي التي أنتجت الفكر[3] .

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩ .
(٢) كيف تربح الحياة
(٣) انجلز : « فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية » .

وتقول :

ـ « عقل الإنسان ليس هو الذي يخلق له طراز معيشته وإنّما طراز المعيشة هو الذي يخلق للإنسان عقله »[1] .

ربّما وقعت الماركسية ، في هذه الغلطة الكبيرة لكي تفسّر ظهور الأديان وفق فلسفتها الطفولية .

ولكن الحقائق الدامغة ، كلّها جاءت لتُفنّد هذا الأمر وإليك بعضها :

أولاً : هناك سلسلة من الأُصول الفكرية الثابتة التي لا يشكّك فيها إلا صاحب عقلية الغاب ، وهي غير قابلة للتغيير والتبديل ، ككثير من المسائل الرياضية ، والفيزيائية ، وما شابه ذلك .

فهل يمكن أن تتغيّر المعادلة الرياضية التي تقول : إن حاصل جمع عددين متساويين يساوي ضعف أحدهما ، مثل ٤ + ٤ = ٨ ؟ هل يمكن تبدّل النتيجة إلى ١٢ ـ مثلاً ؟

أم هل يمكن أن تتبدّل قوانين انعكاس الضوء ، وقوانين انتشار النور ، وقوانين الجاذبية ، وقوانين تركيب الأوكسجين، وقوانين الحرارة ؟ . . الخ

---

(١) كارل ماركس: « مساهمة في نقل الاقتصاد السياسي » .

ثانياً : إنّ التجربة البشرية أثبتت وجود قوانين ثابتة لا تتغيّر ، مثلاً يقوم علم طبقات الأرض، وعلم طبقات الجوّ على أُصول ثابتة ، وقد تمكّن العلماء بالاعتماد على هذه الأُصول من اكتشاف كنوز الأرض كآبار البترول ، واستخدام طبقات الجوّ في الطيران وما شابه ذلك ، ولو كذبنا « ثبات هذه الأُصول » فانّه يقتضي أن نكذّب اكتشاف البترول ، وطيران الطائرات والصواريخ مع أننا نعيش اكتشاف ذلك طيلة العمر ؟

ثالثاً : إن الماركسية ـ كما نعرف ـ تعتمد على « المنطق الديالكتيكي » والمنطق ـ أيّ منطق ـ لا يمكن أن يكون منطقاً إلا إذا قام على طريقة خاصة في التفكير ، أي على قواعد معيّنة ثابتة ، ولو اعتبرنا هذه القواعد غير ثابتة فانّه يعني أن المنطق الديالكتيكي الذي كانت الماركسية تعتمد عليه سابقاً ، وتعتبره صحيحاً ١٠٠٪ لا بدّ أن يكون قد انقلب اليوم ، وبعد مرور أكثر من قرن ونصف عليه ، إلى منطق باطل ١٠٠٪ وهذا على الأقلّ ما يحاول الماركسيّون أنفسهم البرهنة على خلافه ويطلبون من الناس أن يعتقدوا بأن المنطق الديالكتيكي لا زال صحيحاً ، وسيظلّ صحيحاً حتى الأبد .

فكيف كان كل شيء متغيّراً حتى الأفكار والعقائد إلا

ما يعتقد به الماركسيّون ؟.

أليس ذلك نوعاً من التناقض مع الذات ؟

رابعاً : إن الماركسية تعتمد على « قانون التطوّر » كأصل ثابت لا يمكن أن يتغيّر .

إذن فهي تعترف بوجود قوانين ثابتة ، ويكون البحث حينئذ في معرفة : « ما هي القوانين الثابتة ؟ » لا في وجود القوانين الثابتة أي : هل هناك قوانين ثابتة ؟

ولو اعتبرت الماركسية نفس « أصل التطوّر والحركة » خاضعاً للحركة والتطوّر باعتباره نتيجة فكرية ، والنتائج الفكرية متطوّرة لأنّها مادية ، فانّه يعني : ان أصل الحركة والتطوّر ليس أصلاً ثابتاً ، وانّه قد يتبدّل الى « أصل الثبوت والجمود » بدل « أصل التطور والحركة » ـ بحكم التطوّر الى الضدّ ـ وهذا يقتضي أن تكون الحقائق التي كانت متطوّرة بالأمس ثابتة اليوم .

وفي كلا الحالين تكون الماركسية مضطرّة الى الاعتراف بوجود حقائق ثابتة !

والواقع فان الماركسية حينما آمنت بهذا « الأصل » الواهي ، فانّما فعلت ذلك لكي تستند إلى « شيء ما » في نسف القيم الدينية والأخلاقية ، لأنّها فسرت الحقائق الدينية

بـأنّها نتائـج الفكر ، ومـا دام الفكـر هـو بحـدّ ذاتـه نتيجـة للمادة ، والمادة متطوّرة غير ثابتة ، فالحقـائق الدينيـة يجب أن تتغيّر ، ولا تبقى ثابتة .

ولكن المـاركسيـة نسيت ، وهي تتبنّى هـذا الأصـل ، أنّها تضـع مسماراً في نعش نـظريّتها ، لأنّ الماركسية ـ بناءاً على هذا ـ أيضاً يجب أن تتغيّر ، وتتبدّل ، لأنّها هي الأُخرى نتيجة فكرية ، والفكر نتيجة مادية ، والمادة متطوّرة .

فكيف تطالبنا الماركسية بـالكفر بـالقيم ، والعقائـد ، والقواعد الدينية ، وتطالبنا بـالإيمان ـ حتّى الأبـد ـ بقيمها ، وعقائدها ، وقواعدها .

هل تؤمن بأنّها نتيجة « الوحي » الـذي لا يتغيّر ، وان ما جاء به الدين هو نتيجة الفكر ؟

أم ماذا ؟

ثم إذا كانت الماركسيـة تؤمن بأنّ « القيم الأخـلاقية » تتطوّر ، وعلينا أن لا نؤمن بها دائماً ، فهل تستطيع أن تقول لنـا كيف نثق مثلاً بـالنظم التي تتبنّى المـاركسية في عـلاقاتنـا معها ؟

انّ « الصدق » و« الالتزام بالحق » و« عون الضعيف » كلّهـا خـرافـات ، أو نتـائـج فكـريـة قـابلة للتـطوّر في رأي

الماركسية ، فكيف نستطيع أن نعرف انّ هذا الحزب الماركسي أو النظام الماركسي « صادق » في موقفه وانّه « ملتزم » بمسؤولياته ، واتفاقياته ، وانّه مستمر في دعم « الضعيف » ، وكيف نثق به ؟

إنّ في الإنسان وجداناً يميّزه عن باقي الكائنات ، وهو بمنزلة البوصلة التي ترشده إلى الاتجاه الصحيح ، ويمكننا الاعتماد على هذه البوصلة للتعرف على ما هو « ثابت » وما هو « متغيّر » .

فالحياة فيها خطّان :

خطّ ثابت .
وخطّ متغيّر .

فمبادىء الحقّ ، والعدل ، والصدق ، والوفاء ، وكل القيم الدينية هي مبادىء ثابتة لا تقبل التغيير في أيّ زمان ومكان ، وهي مبادىء الانسان التي تدفعه إلى الارتقاء والتكامل ، ولا يمكن أن يكون لها تأثير عكسي .

وإن الحقائق العلمية ، والمفاهيم الدينية لا تخضع لقانون التطور ، لأنّها من القوانين التي ثبتت صحّتها مائة في المائة ، والحقائق لا تنقلب الى « خرافات » مهما طال الزمن ، وتعاقبت الأجيال .

هذا ما يقوله الوجدان الإنساني .

أمّا الخطّ المتغيّر ، فهو في الأمور المادية للانسان ، أي في مسكنـه ، في ملبسه ، في مـطعمه ، في تـطوّر الآلـة ، في الارتقاء ، وعدم الارتقاء الروحي .

ثانياً ـ تناقضات التطوّر

وتشرح لنا الماركسيّة هذا الأصل بقولها :

ـ « إن كل شيء ـ حتّى الحوادث التاريخية ـ تزخر بتناقضات داخلية ، وفيها ـ دائماً ـ عناصر تضمحلّ ؛ وعناصر تتطوّر ، وهذا التناقض هو الذي يدفع بالأشياء الى الحركة والجريان المستمرّ ، لأنّ الأضداد ، والنقائض الموجودة في داخل الشيء الواحد ، تجلب حتماً صراعاً مريراً لكسب المعرفة .

ومن هنا ينبثق التطوّر[1] .

ولنا أن نناقش هذا الأصل بما يلي :

واحد ـ لا شكّ في وجود صراع في هذه الدنيا ، ولكنه ليس صراعاً في الوجود كلّه ، وانّما هو صراع الارادات البشرية ، أي صراع الحقّ والباطل ، صراع الهوى

(١) المصدر السابق .

والعقل . وهو صراع خاص بالبشرية . أمّا أشياء الحياة الأُخرى ففيها التعاون وليس التناقض .

هل الشمس تتناقض مع القمر ؟ مع بقية النجوم ؟

هل الماء، يتناقض مع التراب ويتصارع معه ؟

هل النباتات تتصارع مع الهواء ؟

إن كل ما في الكون يدلّ على تعاون عميق بين أجزائه من أصغر ذرّة إلى أكبر مجرّة .

ضع نواة شجرة في داخل التراب ، ثم لاحظ بالميكروسكوب ماذا تعمل الذرات الموجودة هناك ، وكيف تتعاون كل قوى الطبيعة مع بعضها البعض لإنمائها .

تُرى أين هو الصراع ، والتناقض في ذلك ؟

إثنين ـ انّ التناقض إذا كان هو السبب في التطور فهل تستطيع الماركسية أن تحلّه ؟ أو انّها تريده يستمرّ ؟

وماذا يعمل المجتمع الماركسي : هل سيعيش على التناقضات هو الآخر ؟ أي يحمل المجتمع الماركسي في عمقه مجتمعاً « ضدّ ماركس » بحيث يحقّ لنا أن نتنبّأ بأن مستقبل المجتمعات الماركسية هو مجتمعات ضدّ ماركسية ؟

هل يسمح لنا الماركسيون بهذا التفكير ؟

ثالثاً ـ قفزات التطوّر

تشرح الماركسية هذا الأصل بقولها :

. . . إن لكل شيء إنقلاباً مفاجئاً الى ضدّه ، وذلك بفعل العوامل الداخلية والتناقضات الذاتية .

« فالبيضة مثلاً تتفاعل فيها القوى المتناقضة حتى إذا وصلت الى مرحلة خاصة انقلبت الى الفرخة فجأة ، والماء إذا بلغت درجة الحرارة فيه إلى مائة درجة يتحوّل فجأة الى بخار »[١] .

ولنا أن نناقش هذا الأصل بما يلي :

واحد ـ إنّ الماركسية تتجاهل في هذا الأصل العلم والتجربة والواقع الملموس .

---

(١) المادية الديالكتيكية .

مثلاً ـ مثال البيضة التي تتحوّل الى فرخة ، والماء الذي يتحوّل الى البخار : كلّنا يعلم انّ الحرارة الخارجية ، لا تناقضات المحتوى الداخلي ، هي السبب في تحوّل البيضة الى الفرخة ، ولولا الحرارة الخارجية لبقيت على حالها . .

وكذلك في الماء . . فان الحرارة الخارجية هي سبب تحوّلها الى بخار ، ولولاها لبقي الماء ماء . .

وبما أن في إمكان الإنسان أن يمنع من قفزات التطور بمنع العوامل الخارجية المؤثرة ، فان بإمكانه منع قفزات التطوّر الحتمية ، فلا تكون هذه القفزات إذن قانوناً أساسياً في الطبيعة .

إثنين ـ انّ الثورة ـ وهي التغيير والتحوّل ـ في الانسان نفسه ـ وهو مصبّ الفكر الماركسي ـ ليس لسبب صراع داخلي في اللاشعور ـ مثلاً ـ بل بسبب صراع خارجي في المجتمع الاستغلالي . .

فهل يا ترى انّ الذين يثورون على واقعهم يفعلون ذلك لوجود صراع نفسي فيهم ، أم لوجود صراع مع قوى الاستغلال ؟

ثلاثة ـ إن مشكلة الماركسية تكمن في نقطتين أساسيّتين :

الأولى ـ أنّها تريد أن تكون شمولية تجارب على كل شيء ، وتفتي في كل شيء ، من علم التاريخ ، إلى وجود الانسان ، ومن قوانين الحرارة الى حركة سير المجرّة . وهذا شمول مقصود في النظرية ، حتى يكون تابعها ممثلاً بكل غث وسمين ، فلا يكون فيه فراغ لرأي مخالف ، أو وجهة نظر منافسة ، وبذلك يتمّ تعبئته بشكل كامل للأغراض المختلفة .

الثانية ـ إنّ الماركسية تأخذ مثالاً واحداً من التاريخ ، أو من أشياء الحياة ، ثمّ تبني عليه حكماً كليّاً عاماً شاملاً في كل شيء .

مثال البيضة والفرخة ، ومثال الماء والبخار ، بالإضافة الى أنّهما كانا باطلين ، فهما مثالان فقط حدث فيهما انقلاب مفاجىء ـ حسب فهم الماركسية ـ ولا يجوز أن نجعلهما مصدراً لحكم كلّي ، ونبني عليهما أموراً اجتماعية ، وفلسفية وإنسانية . لأنّ ذلك تجاهل لأكثر التحوّلات التي تقع بصورة تدريجية كالأمور التالية :

١ ـ «نموّ الإنسان» من جنين ، إلى طفل ، إلى شاب ، إلى كهل ، إلى شيخ . كل ذلك يحدث بصورة تدريجية وليس قفزية .

٢ ـ التحـوّلات الطارئـة على الأشجـار والنباتـات وما شابه ذلك .

٣ ـ التحوّلات التي مرّت بها العلوم التجريبية كالطبّ والهندسة وأمثال ذلك .

٤ ـ على فرض قبول نظرية الانقلاب المفاجىء ، فان قبولها عن طريق العوامل الداخليـة تكذّبـه الحقائق التـاريخية لنفرض أن تحوّلات حـدثت في « علم الفلك » ولكن حتماً لم يكن ذلك بفعل التناقضات الداخلية ، بـل لاختراع الآلات والمراصد الحديثة .

أربعة ـ لا شكّ ان الماركسية إنّما يعنيها في هذا الأصل « الـوجـه الاجتمـاعي » لهـا ، فهي تـريـد أن تفسّر حـركـة التاريخ على أساس التطور حسب التناقضات الطبقية .

وتـريـد أن تقـول : ان المـاركسيـة تسعى لاذابـة التناقضات وصنع مجتمع لا طبقي ، متساو . .

وهي بذلك تناقض « حركية الحياة » فالنتيجة الطبيعية لهذا التصوّر الخاطىء هو وصول البشرية الى مرحلة السكون والجمود بعد القضاء على صراع الطبقات لأن هذا الصراع ـ حسب النظرية الماركسية ـ هو عامل التطور والحـركة ، فـاذا قضي على هذا الصراع وانعدمت الطبقية فلا مبرّر ـ بـل ولا

إمكانية ـ للتطوّر والحركة .

فالصراع الطبقي الذي انتهى في المجتمع الشيوعي والتناقضات التي اختفت ، اختفى معها أيضاً العنصر الديناميكي في التاريخ ، ولم يعد هناك أي قوة باقية للتغيير ، فهنا يقف دولاب الحياة الاجتماعية ، ويقف كل سباق ، وتفقد الحياة كل تحدّي ، وبذلك تفقد أيضاً كل استجابة ، لأنّها فقدت الحركة نظراً لأنّها خلت من التناقضات ، الحركة هي كما تقول الماركسية هي حصيلة التناقضات داخل المجتمع وليست حصيلة الارادة ـ كما يقول الدين ـ. وهكذا تصبح الحياة المجتمعية ستانيكية محضة ، أي رتيبة الرقابة المطلقة ، الأمر الذي ينتهي بالمجتمع وأبنائه إلى السأم والملل أي الى الأخذ بالمذهب الوجودي المادي ، أي بمذهب العبثية ، والعدم ، عبثية البيركامو ، وعدمية جان بول سارتر .

فالتاريخ قد انتهى ، والحياة قد أصبحت انتظاراً للموت والناس بطبيعتهم يكرهون الانتظار ، لذلك فليس من سبيل الاّ الانتحار ـ كما دعى الى ذلك كامو ـ !

خمسة ـ إذا كان التناقض الداخلي ، هو علّة العلل في التطوّر ، فلماذا جمدت الأنظمة الماركسية هذا التناقض في

المجتمعات التي تحكمها ؟

لماذا تمنع من انتشار الفكر الاسلامي مثلاً ؟

انّ أكبر خطأ ارتكبته الماركسية بحقّ البشرية ، هو انّها اتّخذت الديالكتيك حقيقة مطلقة ولا نهائية للعالم ، وتبنّته الدولة مذهباً رسمياً ، واعتبرته فوق كل جدال ، ومناقشة ، وجعلته المرجع الأعلى الذي يجب اخضاع كل علم ومعرفة له ، وضرب كل فكر وجهه لا ينسجم معه ، ولا ينطلق منه .

وهكذا أصبحت المواهب ، هنالك أسيرة قنوات معينة ، لا يجوز أن تنطلق منها .

وبذلك : قتل الفكر الانساني ، يوم قتلت الحرية في إيمان الانسان بما يراه صحيحاً ! .

رابعاً ـ قانون الارتباط العام

وتشرح الماركسية هذا الأصل بقولها :

ـ انّ كل جزء من أجزاء الطبيعة ، بما فيها الأحداث ، مرتبط ارتباطاً عضوياً بالأجزاء الأُخرى ، وان كل حدث إنّما هو انفعال لأحداث أُخرى ، وان هناك تأثيراً متقابلاً في أجزاء الطبيعة .

« ولذلك فلا يمكن أن تدرّس الطبيعة حال فصل بعضها عن بعض ، وتجريد ذلك البعض عن ظروفه وشروطه وعمّا يرتبط بواقعه من ماض وحاضر »[١] .

والواقع فان هذا الأصل ثابت بالعلم والتجربة والبرهان ولكن **أولاً** ـ ليس من اكتشافات الماركسية ، بل

---

(١) المصدر

ان الفلسفة الإلهية سبقت الماركسية بعدة قرون .

فآيات القرآن تصرّح بوحدة الكون والحياة والانسان .

وثانياً ـ ان هذه « الوحدة » الرائعة في الطبيعة لدليل قاطع على وجود « خالق واحد » لها . .

تماماً كما ان ترابط أجزاء السيارة الواحدة، دليل قاطع على ان المصنع واحد . .

والإسلام يذهب إلى أبعد مما قالته الماركسية حيث يقول ان أصل كل شيء من مادة واحدة : ﴿وَالله خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماءٍ﴾[1] .

ويقول ـ ﴿ألم تَر انَّ الله يُسبِّحُ له من في السمٰوات والأرض والطيرُ صافاتٍ كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليمٌ بما يفعلونَ . ولله ملك السَّمٰوات والأرض وإلى الله المصير . ألم تَرَ انّ الله يُزجي سحاباً ثُمَّ يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله ، ويُنزِّل من السماء من جبالٍ فيها من بردٍ فيُصيبُ به من يشاء ، ويصرفه عمَّن يشاء يكاد سنا برقهِ يذهب بالأبصارِ . يُقلّب الله الليل والنهار ، إنَّ في ذلك لعبرةً لأُولي الأبصارِ﴾[2]

---

(١) سورة النور آية ٤٥ .

(٢) سورة التوبة آية ٤١ ـ ٤٤ .

ويذهب الإسلام إلى انّ لنيّة الناس ، ارتباطاً عميقاً بمصيرهم ، ولذلك يعتبر « الظنّ السّيء » والنيّة الشريرة إثماً ، ويقول : ﴿**إنَّ بعض الظنِّ إثمٌ**﴾[1] .

(١) سورة الحجرات آية ١٢ .



أُصول الفكر الإسلامي



أولاً ـ هدفيّة الإنسان المتحرّك

ويشرح الإسلام هذا الأصل بقوله :

ـ « ان وجـود الإنسان ، إنّمـا هو لهـدف معيّن . فهـو يـأتي من دون اختيـار منـه ، ثم يمـوت من دون اختيـار منـه أيضاً .

فلماذا جيىء به الى هذه الدنيا؟

لا بدّ أن يكون لوجوده هـدف محدّد . إذ لا يعقـل أن يكـون كل جـزء في الإنسان ـ وفي الحيـاة أيضـاً ـ إنّمـا وجـد لهدف معيّن ، مثلاً أية « غـدّة » في جسم الانسان إنّمـا تؤدّي هدفاً معيّناً . وكذلـك أيّة خليّـة ، بينما الإنسـان نفسه وجـد من دون هدف ؟!

انّ الذي جاء بالانسان ، ويذهب به ، إنّمـا استهدف شيئاً من وراء ذلك .

فما هو هدف وجود الانسان ؟

الهدف هو : أن يرتقي الانسان . أن يرتفع . أن يتخلّق بأخلاق الله .

يقول القرآن : **﴿يا أيُّها الإنسان إنَّك كادح إلى ربِّكَ كدحاً فملاقيهِ﴾**[1] .

ولكن رقيّ الإنسان وارتفاعه ، لا يأتي بحكم الجبر والحتمية . وإنما بحكم الارادة الفاعلة . فعلى الانسان أن يرتقي في حركته الدائمة . عليه أن يصعد . **﴿لا إكراه في الدين ، قد تبيّن الرُّشدُ من الغيِّ﴾**[2] ومن يرفض أن يرتفع يسقط .

فالانسان المتحرّك ، لا بدّ أن يضع حركته في خدمة إرادته ، ويحاول الارتقاء والتطوّر .

يقول الحديث الشريف : « من استوى يوماهُ فهو مغبون ، ومن كان آخر يوميهِ شرَّهما فهو ملعونٌ . ومن لم يرَ الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان ، ومن كان الى النقصان فالموتُ خيرٌ لهُ من الحياة »[1] .

---

(١) سورة الانشقاق آية ٦ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٥١ .
(٢) كيف تربح الحياة .

ويقول القرآن : ﴿**إنّ الله لا يغيّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[1] .

والإنسان هو الذي يصنع مجتمع ، وظروفه .

صحيح ان للظروف تأثيراً على الانسان ، ولكن يبقى الانسان قادراً على الثورة على ذاته ، ومن ثمّ الثورة على ظروفه .

فكم من أبناء الاروستقراطيين ثاروا على واقعهم ، وعاشوا مع الفقراء ؟

وكم من أبناء الفقراء عملوا العكس ؟

ولهذا : فانّ أهمّ ما يطالبنا به الاسلام : أن نحرّر إرادتنا : « لا تكن عبد غيرِكَ ، وقد جُعلتَ حُرّاً » . « إنَّ الله أَوكل الى عبدِهِ المؤمن كلُّ شيءٍ ولم يُوكل إليه أن يذلّ نفسه » .

ان على الانسان الذي يرى وجوده محدداً بين الولادة ـ الموت ، أن يحقق الهدف من وجوده ، وبداية ذلك ان يعرف من أين جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ ولماذا كان هنا ؟

---

(١) سورة الرعد آية ١١ .

وفي الحديث : « رَحم اللهُ من عرف : من أيْنَ ؟ وفي أيّنَ ؟ وإلى أين ؟ » .

ثانياً ـ الكون وحدة متكاملة وخالق واحد

ويشرح لنا الإسلام ذلك بقوله :

ـ « إن الكون مخلوق لله . وكل الدلائل تشير إلى وجود ترابط بين أجزائه ، حتى ان العلم الحديث اكتشف ان وجود الانسان يرتبط بوجود ريش الحمام ، لأن الحمام إذا لم يكن له ريش ما استطاع أن يطير ولو لم يستطع الطيران لم يستطع أن يعين هوام الفضاء ، ولو لم يعين الهوام تكاثر بشكل غريب ، ومن ثم قضى على وجود الانسان .

وهذا الترابط دليل وحدة الخالق ، وليس وحدة الخلق .

والله الذي خلق الكون : خلقه لهدف وهو خدمة الانسان ـ باعتباره الكائن الوحيد الذي له حرية الاختيار ـ فكلّ ما في الكون للإنسان . أما الانسان فهو لله ، بمعنى أنّه خلق ليرتقي الى الله في خلقه وإرادته الخيّرة .



ثالثاً ـ برامج لمساعدة الإنسان

ويشرح لنا الإسلام ذلك بقوله :

ـ « بما أن الإنسان يولد جاهلاً بكل شيء حتى بطريقة الأكل والمشي ﴿**والله أخرجكُمْ من بُطونِ أمّهاتكم لا تعلمونَ شيئاً**﴾[1] فان الانسان بحاجة الى مساعدة الله له ، لكي يستطيع أن يرتفع ، ويتطوّر .

ولهذا أرسل الله رسالته الى الانسان ، عبر مختلف عصوره . وهذه الرسالة إنّما هي عبارة عن برامج حياتية تكفل ـ إذا عمل بها الإنسان ـ سعادته في هذه الحياة ، وفي القسم الآخر من حياة الانسان المستور . . والذين حملوا هذه الرسالة هم الأنبياء .

وهذه المساعدة من الله ، تنسجم مع السبب الذي

---

(١) سورة النمل آية ٧٨ .

من أجله خلق الله الإنسان : وهو أن يرحمه ، وأن يسعده .

فالله خلقنا ليسعدنا .

ولكنّنا نجهل كيف نعمل حتى نسعد ؟

فأرسلنا له رسله ومعهم برامج للحياة السعيدة .

من هنا : كان لا بدَّ من الاهتمام بالحياة الدّنيا ، لأنّها موقع فرصتنا الأولى والأخيرة للسعادة . . بمعنى انّ طريقتنا في الحياة الدنيا ، ونجاحنا فيها هي الطريق الى النجاح لدى الله .

من هنا يقول الاسلام :

- « ليس منَّا من ترك آخرته لدنياه ، وليس منّا من ترك دنياه لآخرته » . . .

ويقول :

- - « مَنْ كَسُلَ عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل » .

ويقول :

- « إعملِ لدنياكَ كأنّك تعيشُ أبداً ، واعمل لآخرتك كأنّك تموتُ غداً » .

رابعاً ـ الموت والحياة الأبدية

ويشرع الاسلام هذا الأصل بقوله :

« لا بدّ أن نموت . فكل من عليها فان . وكل نفس ذائقة الموت » .

« وجودنا الفاني على وجه الأرض ما هو إلا وجود مسافر في صالة « ترانزيت » وهذه الدنيا بأكملها ليست سوى قاعة انتظار كبيرة يحلّ فيها المسافر قادماً من المجهول ، ووجوده مؤقّت ، عليه أن يستثمره في الجدّ لأنّه سرعان ما ينادون باسمه ، وحينئذ لا يملك إلا أن يطيع ، ليمضي إلى الأبد إلى حيث لا يدري » .

ألا إنّما الدنيا كمنزل راكب
أناخ عشياً وهو في الصبح راحل

أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام .

فالموت ليس نهاية . انه البداية للجزء المستور من حياة الانسان في عالم آخر .

وهناك أمّا النعيم الدائم ، أو العذاب الدائم . إذ لا اختيار هناك ، ونتائج عمل الانسان في الدنيا تتجسّد في ذلك العالم بشكل أوضح وأكبر .

فالموت باب وكل الناس داخله
يا ليت شعري بعد الباب ما الدارُ!
الدار جنات عدن ان عملت بما
يرضي الإله وان قصرت فالنار

وبعد . .

تلك كانت أُسس الفكر الماركسي .

وهذه كانت أُسس الفكر الإسلامي .

وقد رأينا : أن الماركسية تتخبّط في الظلام ، حيث تسلب الانسان أهمّ ما فيه ، وهو « الإرادة » وحريّة الاختيار . وتجعله أسير الجبرية الاقتصادية وما تسمّيه بحركة التطوّر .

بينما الاسلام يؤكّد على إرادة الانسان ، ويجعلها المسؤولة عن التطوّر ، أو الانتكاسة .

والماركسية تكفر بالله الخالق رغم ان كل الأدلّة العلمية والعقلية ، والوجدانية تؤكّد وجوده . .

بينما الاسلام يؤمن به .

وماذا لو متنا ، ورأينا أن كل ما قاله الأنبياء كان صحيحاً ؟ هل تستطيع الماركسية حينئذ أن تنقذنا ؟

إنّ الماركسية عجزت في هذه الدنيا أن تخلق السعادة للانسان . تماماً كما عجزت الرأسمالية عن ذلك . .

بينما تجارب الاسلام ، تؤكّد انّه خلق المجتمع السليم المتعاون الذي سعد فيه الفرد ، والمجتمع . .

وكما حقّق الاسلام نبوءته في الدنيا ، سيحققها في الآخرة أيضاً .

وكما عجزت الماركسية أن تحقّق نبوءتها في الدنيا ستعجز عن ذلك في الآخرة . .

وسيكتشف كل إنسان ذلك بنفسه .

هادي المُدَرّسي

١٣٩٥ هـ

الفهرس